تكوين الشعب المصرى الجديد

بعد الفتح العربى

بقلم جمال الدين الشيال

كان الجيش العربى الذى قام بفتح مصر يتكون من نحو اثنى عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة . وبعد الفتح ظل العرب يرحلون إلى مصر فى أفواج كثيرة متتابعة ، كان أكبرها هجرة قبائل من قيس فى سنة ١٠٩ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وولاية الوليد بن رفاعة على مصر .

ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام فى الدولة كلها ، إذ كان هشام يرمى إلى إضعاف شأن القبائل اليمنية بالاعلاء من مركز القيسية ، يقول الكندى إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولى خراج مصر من قبل الخليفة هشام كتب إليه يقول :

"إن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — قد شرّف هذا الحى من قيس ونعّشهم ، ورفع من ذكرهم ، وإنى قدمت مصر فلم أرَ لهم فيها حفظا إلا أبياتاً من فَهْم ، وفيها كُوَر ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ، وهى ببلبيس . فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل ، فكتب إليه هشام : أنت وذلك"(١) .

ثم يذكر الكندى بعد ذلك أن هشاماً أرسل إلى البادية فاستقدم أربعمائة أهل بيت من بطون قيس المختلفة ، وأوفدها إلى مصر ، فنزلت بالحوف الشرقى حول بلبيس .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، طبعة جست ، ص ٧٩

" وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلاً ، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل ، ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشترى المهر ، فلا يمكث إلا شهراً حتى يُركب ، وليس عليهم مؤونة فى إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم ، فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمّل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت ، فمات هشام وبلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس " (١) .

واستمر توافد قيس على مصر ونزولهم بأرضها طوال الفترة الباقية من عصر بنى أمية ، وانتهى عهد الدولة بموت مروان بن محمد وبمصر :

" ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا ، وقدم عليهم من البادية من قدم " (٢) .

واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم متتابعة متلاحقة فى العصور التالية ، وخاصة فى عصر الدولة الفاطمية ، ففى خلافة المستنصر مثلا عظم شأن القبائل العربية النازلة فى جنوب الشام حول غزة ، وكثرت ثوراتهم ، واشتدت وطأتهم على الولاة .

" فبعث الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن على اليازورى إليهم فى سنة ٤٤٢ يستدعيهم ، وأقطعهم البحيرة... فاتسعت أحوالهم ، وفخم أمرهم ، وعظم شأنهم ... " (٣) .

(١) الكندى : المرجع السابق ، ص ٧٧ ؛ وانظر : المقريزى : الخطط ، طبعة النيل ، ج ١ ، ص ١٢٨

(٢) الكندى : ص ٧٧

(٣) المقريزى : البيان والإعراب عمن نزل بأرض مصر من الأعراب ، ص ٢٤-٢٥

ووفدت فى نفس العهد قبائل أخرى ، غير أنها ما لبثت أن قامت ببعض الشغب والثورات ، فنقلت الدولة بعض هذه القبائل — وخاصة قبيلتى بنى سليم وبنى هلال — إلى الوجه القبلى ، وبعد قليل عمل الوزير اليازورى على نقل بنى هلال إلى شمال أفريقيا لدأبهم على إثارة الشغب ، ورغبة منه فى الانتقام من بنى زيرى الذين خرجوا عن طاعة الفاطميين فى إفريقية .

وقدمت قبائل أخرى فى خلافة الفائز الفاطمى ووزارة الصالح الطلائع بن رُزِّيك ونزلت فى منطقة دمياط والبرلس ، ونزلت بطون من قبيلة جذام فى منطقة زفتى وميت غمر .

من هذا البيان الموجز يتضح أن الهجرات العربية الأولى استقرت فى جهات أسفل الأرض (الوجه البحرى) ، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة ببلاد الصعيد ، وانتشرت فى جميع نواحيه جوف أسوان وجنوبها ، وفى منفلوط وأسيوط والأشمونين وإخميم ، وفى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، وخاصة صحراء عيذاب .

وكان العرب فى أول أمرهم جنودا يقومون بالفتوح فى الأقاليم المجاورة ، أو بالدفاع عن مصر ، وكانت منازلهم فى العاصمة (الفسطاط) أو فى الثغور كدمياط وتنيس ورشيد والاسكندرية ، أو على الحدود فى الصحراء ، فلما كثر عددهم وتوالت هجراتهم اشتغلوا أيضا بالرعى على حافتى الوادى . ثم لم تلبث أن اجتذبتهم الحياة فى وادى النيل نفسه ، فأقبلوا عليه ، واشتغلوا بالزراعة ، واختلطوا بالأهلين ؛ وظلت للعرب هذه الصفة — صفة الرعى أو الجندية — حتى كان عهد الخليفة العباسى المعتصم ، وكانت أمه تركية ، فاستكثر من الجند الأتراك فى عاصمة الدولة ، ثم لم يلبث أن أرسل إلى كيْدر نصر بن عبد الله واليه على مصر (٢١٧ — ٢١٩ هـ) .

" وأمره باسقاط مَنْ في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ، ففعل ذلك ... " (١)

ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالى ، ولما ولى أحمد بن طولون على مصر استكثر من العبيد فى جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركى ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف حر مرتزق .

وباسقاط العرب من ديوان الجند ومنع عطائهم انتشروا فى أنحاء مصر وتم اختلاطهم بالأهالى .

أما الأقباط فقد كانوا أكثرية وقت الفتح ، يقول المقريزى :

" اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى ، وهم على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم : أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية ، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف روى ، والقسم الآخر عامة أهل مصر ، ويقال لهم القبط . وأنسابهم مختلطة لايكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الاسرائيلى الأصل ، من غيره ، وكلهم يعاقبة ، فمنهم كتاب الملكة ، ومنهم التجار والباعة ، ومنهم الأساقفة والقسوس ونحوهم ، ومنهم أهل الفلاحة والزرع ، ومنهم أهل الخدمة والمهنة ، وبينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم ، ويوجب قتل بعضهم بعضاً " (٢) .

---

(١) الكندى : المرجع السابق ، ص ١٩٣ ؛ والمقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٥١

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٣

وقد دارت الحروب بين العرب والروم وقت الفتح ، أما القبط فكانوا عوناً للعرب ، وبعد الفتح كتب عمرو أماناً لبنيامين بطرك الأقباط ، فخرج من مخبئه فى الصحراء ، وعاد إلى كرسى بطركيته بعد أن غاب عنه ثلاث عشرة سنة ، واعتبر الأقباط أهل ذمة ، وفرض على كل من بلغ الحلم ديناران [1] — ويستثنى من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ — ، وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أى شكوى نحو قرن من الزمان ، فلما فكر بعض ولاة مصر فى زيادة مقدار الضريبة ولو زيادة طفيفة كان الأقباط يقومون بثورات مختلفة ، وكان الولاة يضطرون إلى العمل على إخماد هذه الثورات بالقوة والعنف :

١ — ففى سنة ١٠٥ هـ كان الوالى على مصر من قبل الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك هو الحر بن يوسف ، وكان عامل الخراج هو عبيد الله بن الحبحاب ، فكتب إلى هشام أن أرض مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطاً ، فانتقضت بعض كور مصر (كورة تنو ، وتمىّ ، وقربيط ، وطُرابية) وعامة الحوف الشرقى ، فبعث إليهم الحر ابن يوسف بأهل الديوان (أى بالجند من العرب) فأخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين ، وكان هذا الانتقاض فى سنة ١٠٧ هـ ، وهو أول انتقاض للقبط [2] بعد الفتح العربى .

وواضح مما ذكر أن الزيادة كانت فى ضريبة الأرض لا ضريبة الرؤوس (أى الجزية) ، وأنها كانت زيادة طفيفة تبلغ قيراطاً على كل دينار ، وقد تكون دعت إليها حاجة البلد ، كما أن عامل الخراج ذكر للخليفة أن الأرض تتحمل هذه الزيادة ، ومع هذا فقد ثار القبط فى بعض الكور وفى الحوف الشرقى ، لأن المسائل المالية كانت دائماً — فى كل العصور وفى كل البلاد — مسائل حساسة تثير شعور الشعوب .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٨٧

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٧٣–٧٤ ؛ والمقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٤

٢ — وكانت فتنة القبط الثانية جزئية كذلك فى بعض بلاد الصعيد ، وذلك فى سنة ١٢١ هـ فى ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر من قبل هشام بن عبد الملك ، يقول الكندى :

" ثم انتقض أهل الصعيد ، وحارب القبط عما لهم فى سنة إحدى وعشرين ومائة ، فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً وظفر بهم ... " (١) .

ولكن الكندى لم يذكر سبب هذه الفتنة ، وإن كان المقريزى قد ذكر أن حنظلة عندما أتى مصر واليا للمرة الثانية تشدد على النصارى ، وزاد فى الخراج ، وأحصى الناس والبهائم ، وجعل على كل نصرانى وسما — صورة أسد — ، وتتبعهم ، فمن وجده بغير وسم قطع يده ؛ فقد تكون هذه السياسة هى السبب فى قيام هذه الفتنة .

٣ — وفى سنة ١٣٢ هـ عندما هزم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أمام جيوش العباسيين فرّ إلى مصر ، وفى مدة وجوده بها ثار بعض القبط بمدينة رشيد ، فبعث اليهم مروان بعثمان بن أبى نسعة فهزمهم (٢) ولسنا نعرف أيضا سبب هذه الفتنة ، وقد يكون أقباط رشيد انتهزوا فرصة الفوضى التى صاحبت زوال دولة بنى أمية وقيام الدولة الجديدة فقاموا بهذه الفتنة .

٤ — وفى سنة ١٣٥ هـ فى ولاية أبى عون من قبل العباسيين :

"خرج أبو مينا القبطى بسمنود ، فبعث اليه (أبو عون) بعبد الرحمن بن عُتبة ، فقُتل أبو مينا .. " (٣) .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٨١

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٦

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٢

وليس فى المراجع تعريف بشخصية أبى مينا هذا ، ولا ذكر لأسباب خروجه .

٥ — وفى سنة ١٥٠ هـ فى ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤ — ١٥٢ هـ) من قبل الخليفة العباس أبى جعفر المنصور خرج القبط بمدينة سخا ، وانضم إليهم أهالى البلاد المجاورة ، فأرسل إليهم يزيد فرقة من أهل الديوان ، ولكن يبدو أن هذه الفتنة كانت قوية وخطرة ، فقد قتل فى المعركة بعض قواد العرب ، وجرح البعض الآخر ، « وانصرف الجيش إلى الفسطاط منهزمين » (١) .

٦ — وفى سنة ١٥٦ هـ ، فى ولاية موسى بن على على مصر من قبل أبى جعفر المنصور خرجت القبط ببلهيب ، فأرسل اليهم الوالى جندا هزموهم .

٧ — وفى سنة ٢١٦ هـ فى ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل الخليفة المأمون ثار سكان أسفل الأرض (الوجه البحرى) — عرباً وقبطاً —، وكان سبب هذه الثورة كما يذكر الكندى « سوء سيرة العمال فيهم » (٢) وبذل الوالى عيسى بن منصور ، والقائد العباسى الأفشين جهدهما لاخضاع هذه الثورة التى ظلت قائمة نحو ثمانية شهور — من جمادى الأولى إلى ذى الحجة من سنة ٢١٦ هـ — حتى اضطر الخليفة المأمون أن يأتى إلى مصر بنفسه لاخضاع هذه الثورة ، وأخضعها وعاقب كلا من الحاكم والمحكومين بما يستحق ، أما الوالى عيسى بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنّفه بقوله :

" لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك ، حمّلتم الناس ما لايطيقون ، وكتمتونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد " (٣).

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٦—١١٧

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٠

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٩٢

أما ابن عبيدس الفهرى قائد الثورة من العرب فقد فرّ إلى الصعيد فظُفر به وقُتل، وأما الثائرون من الأقباط « فنزلوا على حكم أمير المؤمنين ، فحكم بقتل الرجال ، وبيع النساء والأطفال، فبيعوا ، وسبى أكثرهم ... »(١) يقول المقريزى :

"ومن حينئذ ذلّت القبط فى جميع أرض مصر، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان ، وغلبهم المسلمون على عامة القرى ، فرجعوا من المحاربة الى المكايدة واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين ، وعملوا كُتّاب الخراج ، فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة ... " (٢) .

هذا موجز لأهم الثورات التى قام بها الأقباط فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، وقد أخضعت كلها بالقوة ، وكان من أهم نتائجها جميعا أن اعتنق عدد كبير من الأقباط الإسلام بعد كل ثورة — رغبة أو رهبة — .

وكان من الطبيعى — وهذه العوامل تعمل مجتمعة لادماج الشعبين أحدهما فى الآخر — أن تنتشر اللغة العربية بين الأقباط ليمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم ، وظل انتشار اللغة العربية بطيئاً طول القرن الأول للهجرة ، وقبيل نهاية هذا القرن ، أى فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م) وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر بالدواوين « فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية » (٣) .

ففى القرن الأول للهجرة كانت أوراق الدواوين تكتب باللغة اليونانية ، وكانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية ؛ ويرجع تاريخ أقدم ورقة مكتوب عليها بهاتين اللغتين إلى سنة ٢٢ هـ (٦٤٣ م) ؛ ويرجع

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٩٢

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٦

(٣) الكندى : المرجع السابق ، ص ٥٨–٥٩ ، وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية مادة " ديوان " ومادة " قبط " أن الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية .

تاريخ آخر ورقة إلى سنة ١٠١ هـ (٧١٩ م) ، كما يرجع تاريخ آخر ورقة بردية مكتوب عليها باليونانية فقط إلى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) ، أما أقدم ورقة مكتوب عليها بالعربية فقط فتاريخها سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م) .

وظل هذا التحول من الكتابة باللغة اليونانية فى الدواوين ، والتحدث بالقبطية بين عامة الناس إلى الكتابة والتحدث باللغة العربية ، ظل هذا التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى إذا كان القرن الرابع (١٠ م) كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية ، بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية .

وليس معنى هذا أن اللغة القبطية تلاشت تماما ، بل لقد ظلت موجودة ، بدليل ما يذكره المقريزى من أن الخليفة المأمون كان يتنقل فى ريف مصر ومعه مترجم ينقل عنه وإليه ، وما يذكره المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم » (ألفه حوالى سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحى مصر كانوا يتحدثون بالقبطية [١] .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض المسلمين تعلموا القبطية فى هذا العهد الأول — عهد الاختلاط — ، يذكر الكندى أن القاضى خير بن نعيم (ولى القضاء من ١٢٠ — ١٢٧) كان « يسمع كلام القبط بلغتهم ، ويخاطبهم بها » [٢] ، كما يذكر أن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، والى الشرطة على الفسطاط (سنة ١٤٤ هـ) كان يتكلم القبطية [٣] .

وذكر البلوى فى كتابه « سيرة أحمد بن طولون » أن ابن طولون تغير على أحد رجاله ، ففر منه ، فأرسل ابن طولون أحد رجال دولته فى طلبه ،

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٨

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٤٩

(٣) نفس المرجع ، ص ١١٣

وأوصاه أن لا يبحث عنه فى داره بالفسطاط ، ولا فى ضيعته ، بل أمره أن يبحث عنه فى « الديارات وعند النصارى ... لأنه حاذق بالقبطية فصيح بها » (١)

ونستطيع الآن أن نلخص خطوات الاختلاط والتحول التى انتهت بتكوين الشعب المصرى فى العصور الوسطى فى النقط الآتية :

١ — امتاز القرن الأول للهجرة بكثرة الهجرات العربية المتتابعة ، وكانت أكبر هذه الهجرات هجرة القبائل القيسية من سنة ١٠٩ إلى سنة ١٣٢ هـ (أى من عهد هشام بن عبد الملك إلى عهد مروان بن محمد) ، وقبيل نهاية هذا القرن أيضا (فى سنة ٨٧ هـ) كان تحويل الدواوين المصرية من اليونانية والقبطية إلى العربية .

٢ — وتمتاز القرن الثانى بثورات الأقباط المختلفة — (من سنة ١٠٥ إلى سنة ٢١٦ هـ) ، وكان من نتائج هذه الثورات دخول كثير من الأقباط فى الإسلام .

٣ — وفى القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند ، ومنعت أعطياتهم ، فانتشروا فى القرى المصرية ، واشتغلوا بالزراعة ، وتزوجوا من المصريات .

ففى هذا القرن تم امتزاج الشعبين .

٤ — ولم يكد يبدأ القرن الرابع حتى كان فى مصر شعب جديد — هو خليط من الشعبين العربى والقبطى — يدين معظمه بالدين الإسلامى ، ويتكلم السواد الأعظم منه — مسلمين وأقباطاً — باللغة العربية .

ونستطيع أخيرا أن نفسر اندماج الأقباط فى العرب ، واعتناقهم الإسلام بالأسباب الآتية :

(١) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، نشر محمد كرد على ، ص ١٣٠-١٣١ .

١ — يقول ابن خلدون « المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب » ، وهذه حقيقة ثابتة نشاهدها فى تاريخ الشعوب المختلفة ، فليس من البعيد إذن أن يفكر بعض الأقباط فى اعتناق الدين الاسلامى — دين الدولة الحاكمة — ، وأن يتعلموا اللغة العربية — لغة الحكام — رغبة فى أن ترتفع مكانتهم ويسهل اتصالهم برجال الدولة ، ويتمتعون بما يتمتع به المسلمون من مركز مرموق .

ولم يكتف نفر من الأقباط باعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية ، بل تغالوا فادعوا النسب العربى ، وبذلوا المال الكثير لإثبات هذا النسب فى وثائق رسمية .

ذكر الكندى أن جماعة من القبط يسمون « أهل الحرس » سعوا لدى قاضى مصر عبد الرحمن بن عبد الله العمرى (١٨٥ — ١٩٤ هـ) ليسجل لهم بحلا باثبات أنسابهم ، ودفعوا له ستة آلاف دينار ، فرفع العمرى الأمر إلى الخليفة الرشيد ، وسافر رجلان من « أهل الحرس » إلى بغداد ، وأنفقا هناك مالا كثيراً ، وادعوا أنهم ينتسبون إلى حوتكة بن أسلم بن الحاف ابن قضاعة ؛ وعند وصولهم إلى بغداد مات الرشيد ، وولى الخلافة ابنه الأمين ، فرفعوا إليه قضيتهم ، وأيدهم فى دعواهم جماعة من أهل الخوف الشرقى وبادية الشام .

ثم عاد الوفد ومعهم كتاب الأمين إلى العمرى بالتسجيل لهم ففعل .

وقد ثار المجتمع العربى فى الفسطاط لهذه القضية ، وأعلن عن غضبه على القاضى العمرى فى شعر كثير [1] ينتقد فيه حكم هذا القاضى ، ويطعن فى قضاياه . ولم تهدأ ثائرتهم حتى عزل العمرى عن قضاء مصر ، وولية هشام بن أبى بكر البكرى (١٩٤ — ١٩٦ هـ) من قبل الأمين أيضا .

وسافر وفد من العرب إلى بغداد للطعن فى حكم العمرى ونسبة « أهل الحرس » للعرب .

(١) أنظر هذا الشعر وتفاصيل القضية فى (الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٩٧-٣٩٩)

" فكتب محمد الأمين إلى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنح أحدا من غير العرب اللحاق بالعرب ، ويأمره أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم " (١) .

فدعا البكرى « أهل الحرمى » ، وطلب منهم سجل قضيتهم الذى أثبت فيه العمرى أنسابهم ، ثم أخرج مقراضاً من تحت مصلاه فقطع السجل به ، وقال لهم :

" العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض ، ان كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد " (٢) .

٢ — كان الأقباط يتولون وظائف الدولة الصغرى والكبرى — فى المدن وفى القرى — ، غير أنهم أخذوا يدخلون فى الإسلام ويتعلمون اللغة العربية رويداً رويداً ، وخاصة بعد صدور الأمر بتدوين الدواوين فى مصر باللغة العربية ، وكان الدافع الأكبر لاقبالهم على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية رغبتهم فى الاحتفاظ بالوظائف التى يلونها ، فقد روى ساويرس بن المقفع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) أرسل إلى مصر كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن وظائفهم ما داموا على دينهم ، ومن أراد الاحتفاظ بعمله فليدخل فى دين محمد ، ولهذا سلم الأقباط ما بأيديهم من الأعمال والوظائف إلى المسلمين (٣) .

ويؤكد هذه الرواية ما ذكره الكندى من أنه فى خلافة عمر بن عبد العزيز « نزعت موازيت القبط عن الكور ، واستعمل المسلمون عليهم » (٤) .

ومن البديهى أن نستنتج أن عدداً كبيراً من أقباط مصر قد دخلوا فى الإسلام وتعلموا اللغة العربية للاحتفاظ بوظائفهم أو العودة إليها بعد تخليهم عنها .

---

(١) ، (٢) الكندى : المرجع السابق ، ص ٤١٢–٤١٣

(٣) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ج ٥ ، ص ٧١–٧٢

(٤) الكندى : المرجع السابق ، ص ٦٩

ومع هذا فإنه يبدو أن تنفيذ هذا الأمر لم يكن عاماً . أو أنه لم يلتزم فيما تلا عصر عمر بن عبد العزيز من سنوات . بدليل أن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من وظائف الدولة ، بل لقد ظل بعض الموازيت يختارون من الأقباط ؛ فقد ذكر فى إحدى الأوراق البردية المحفوظة فى هيدلبرج ، والمؤرخة بسنة ١٧١هـ اسم مازوت قبطى (١) .

٣ — ما كان يحدث عقب كل ثورة من دخول كثير من الأقباط فى الإسلام — طوعاً أو كرهاً — ، وخاصة بعد الثورة الكبرى التى حدثت فى عهد المأمون .

٤ — اعتنق بعض الأقباط الإسلام فراراً من الضرائب التى كانت مفروضة عليهم ، وقد يؤيد هذا أن أول انتقاض للقبط فى العهد الإسلامى (سنة ١٠٥هـ) كان لأن عامل الخراج زاد على كل دينار قيراطاً .

ولم يكد ينتهى القرن الأول للهجرة حتى أحسّ والى مصر ما لكثرة دخول الأقباط فى الإسلام من أثر فى نقص قيمة الخراج ، فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١هـ) كتب إليه عامله على مصر أيوب ابن شرحبيل يشكو كثرة دخول الناس فى الإسلام ، ويذكر له ما لهذا التحول من أثر فى نقص قيمة الخراج ، ثم استأذنه فى فرض الجزية على من أسلم ، فرد عليه عمر رده المشهور :

" قبّح الله رأيك ، إن الله إنما بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جابياً ، فضع الجزية عمن أسلم ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه ... "

٥ — وهناك سبب أخير قد يكون له من القوة ما يفوق الأسباب السالفة مجتمعة ، وذلك أن دخول الأقباط فى الإسلام كان دخولا طبيعياً ، يسير مع التطور المنطقى للحوادث وللتاريخ فى مصر بعد الفتح العربى ،

(١) سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٠١

وأن الدين الإسلامى ببساطته وبساطة تعاليمه وعقائده قد جذب هؤلاء الأقباط إليه ، يقول بهذا الرأى شاهد من أهل الديانة المسيحية ، هو المؤرخ والمستشرق الانجليزى المعروف « سير توماس أرنولد » ، فقد قال فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » :

" والحق أن كثيراً من مسيحى مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التى اعتنقوا بها النصرانية فى مستهل القرن الرابع الميلادى ... كما أن سرعة انتشار الإسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام .

وإن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزباً منفصلا ، والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها وقتاً طويلا ، ودفعوا ثمناً غالياً فى هذا السبيل قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضا وابهاما من الناحية الميتافيزيقية . ولا شك أن كثيراً من هؤلاء قد تحولوا — وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ واستولى على نفوسهم الضجر والاعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم من حولهم — إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد" (١) .

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام (الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم حسن وزميليه) ص ٩٣–٩٤ .